

ثقافة المرأة المصرية

يجب أن تخضع لوظيفتها الطبيعية والاجتماعية
بقلم الأستاذ سيد قطب

“هل نبقى على ما ألقناه من الاحتفاظ بالمرأة لخدمة البيت وتربية
الاطفال تربية صالحة ، ونهني لها ثقافة خاصة تعدنا لتأدية هذين الواجبين
أم نجعل تعليمها ملقنا من كل قيد ، ونسمح لها بالعمل في كل ما يعمل فيه
الرجال ؟ هذا ما يجول في ذهن الكاتب الفاضل في هذا البحث المنع وهو ينصر للفكرة
الاولى ويقدم الوسائل لتحقيقها ، آخذاً في ذلك بمنطق سليم وتدليل قويم .“
المحرر

يعمر نفسى إيمان عميق بحكمة التفريق في الخلق بين الذكر والأنثى ، ووجود أثر
بارز في حياة الجنسين وتكوينهما العقلي والخلق نتيجة لهذا التفريق .

ولست في حاجة أن أمتحنى الباحث “الفسولوجية” لبيان الفروق بين وظائف الأعضاء
في الرجل والمرأة - على كثرتها واستفاضة الحديث فيها - فالبداهة وحدها تكفي لإثبات هذه
الفروق ، والمهمة التي يقوم بها كلاهما لحفظ النوع ، تحدد طبيعة هذه الفوارق بشكل حاسم .
وفي عصرنا الحاضر الذي يتجه فيه البحث - حتى السيكلوجي - إلى الاعتماد على
البحوث “الفسولوجية” والبحوث “البيولوجية” ، وينهج العلم في كل فروعه نهج
التجربة والاختبار في التعامل على أساس المحسوس . في هذا العصر - وهذه نزعة -
لا يحتاج الباحث لأن يبرهن طويلاً على أن كل وظيفة جسمية تقتضى اتجاهها عقلياً وخلقياً
خاصاً في الكائن الحي ، لأنها تكيف استجاباته للأثرات تكيفاً خاصاً ، وهذه الاستجابات
المعينة ، هي التي تكون الجزء الأهم من سلوكنا في الحياة . وكل إغفال لهذه الحقيقة في التربية
والتثقيف ، يعتبر غلطة في تنشئة الفتى والفتاة . غلطة لها عواقبها على الفرد والمجتمع .

ومن هنا كانت الحديث عن “ثقافة المرأة” حديثاً في صميم الاجتماع ، وصميم عمل
”وزارة الشؤون الاجتماعية“ وإن فهم أن وزارة المعارف هي مسئولة عن التعليم .

”الوظيفة تخلق العضو“ هذا مبدأ أصبح مسلماً به في البحوث الفسيولوجية “والوظيفة
تحدد نوع الثقافة“ هذا مبدأ يجب أن يسلم به في الدراسة “السيكلوجية” . وهو مسلم به فعلاً
في هذه الدراسات . ولكن بقي تطبيقه عملياً في المدرسة والمنزل والمجتمع .

والآن : ماهى وظيفة المرأة المصرية ؟ سؤال يجب أن نستشير فيه حاملين :
الأول — هو الغرض الطبيعي من وجود المرأة فى الأرض ، ووجود كل أنثى ، وهو
حفظ النوع وامتداد الحياة .
والثانى — هو الوضع الاجتماعى — بما فيه الجانب الاقتصادى — للمرأة فى الشعب
الذى تعيش فيه .

وكلا هذين العاملين لا يزال — حتى اليوم فى مصر — طبيعيا ، لم يتغير كما انحرف فى أوربا
أيام الحرب العظمى وبعدها ، ففتح — والحمد لله — لم نصب بعد . رب طاحنة تنقص عدد
الرجال القادرين على الزواج والإنسال ، والفرق فى التعداد الأخير بين عددى الذكور والإناث
لا يعد مقافا . كما أن حاجتنا إلى العاملين فى الحياة العامة لا تزال محدودة ، وهى لا تستغرق
جميع القادرين على العمل من الذكور ، حتى نلجأ لنصف الأمة اللطيف ، ندمى بناته الناعمة
بالعمل ، ونضنى كيانه الرقيق بالإجهاد ، بل نحن على العكس نشكو أزمة المتباطئين من الشبان .
وظيفة المرأة المصرية إذن — كوظيفة كل امرأة فى وضعها الطبيعى — هى تكوين
المنزل ، وتنشئة الطفل ... وبالتالي . إنشاء المجتمع فى صورته المصغرة " الأسرة " .

ولست أدري أن هناك تبة أعظم من تبة المرأة فى هذا الوضع الطبيعى الجميل ،
ولا أستطيع أن أتصور وظيفة أخطر من هذه الوظيفة ، أو خطأ أشد من خطأ الذين يتجاهلونها
ويحاولون إلباس المرأة ثوب الرجل ، بعقيدة أنهم يرفعون منزلتها حينئذ ، وينصفونها من
الغبى الذى يتوهمون ! إلا إذا كان غبنا أن يؤدى إلى وظيفة كاملة فى الحياة ، ويقوم
بأعباء جنسه غير منقوصة .

ومنى تحددت الوظيفة ، تحدد معها نوع التربية ولون الثقافة . فإذا أريد من المرأة
المصرية أن تكون منشئة الجيل القادم ، وجب أن تزود فى ثقافتها ، بما يسهل لها هذه
المهمة ، ويقدرها عليها . وكل انحراف بهذه الثقافة فى أية مرحلة من مراحل التعليم عن هذه
الغاية ، يعتبر شذوذاً بالمرأة عن غايتها وغاية الحياة والمجتمع منها ، وانحرافا عن الخطة المثل
لأوضاع الشعب الاجتماعية .

فالفتاة المصرية إما أن يراد لها أن تكون أما وربة بيت ، فيجب حينئذ أن تلاحظ
هذه الوظيفة فى وضع برامج ثقافتها . وإما أن يراد بها الشذوذ عن هذه الغاية الطبيعية ،
فتدرس حينئذ على نظام الفتيان — الذين ستؤدى وظيفتهم — وتكون قد وطلدت نفسها
ووطد أهلها نفوسهم ، وعزمت الدولة كذلك ، على ألا تحيا هذه الفتاة الحياة الطبيعية لها .
لأنها — ومعها أهلها والدولة — قد نذرت نفسها للعلم والبحث ، أو للعمل فى ميدان الحياة
كما تنذر الزاهبات للدير ، حين ينحرفن عن الوضع الطبيعى لهن فى هذه الحياة !

ولا أحب أن يعمل هذا القول على محمل الفلو ، أو المبت بالصور والتشبيهات ؛ فأنه أعنى حقيقة ما أقول .

والفتاة إما متقفة ثقافة نسوية خاصة ، تناسب طبيعتها وتناسب وظيفتها ، فلها أن تترقب زوجها وترجو عشا ، وإما شاذة عن الطبيعة والوظيفة ، فيجب أن يستمر هذا الشذوذ في مستقبل حياتها ، ويتعين عليها أن تسلك الطريق الوحيد الذى يعينه هذا الشذوذ ؛ فلا تتطلع إلى الزوج والعش ، والأطفال والأمرة ، لأن لهذه الحياة مستلزمات لم تنهيا لها ، بل بعدت بشقاقتها عنها . ولتكن قربانا على مذبح العلم أو العمل ، وكم للعلم من قرائن !

ولكى نزيد هذا القول وضوحا فنشرح مواد الثقافة التى تحتاج إليها الفتاة لتكون أما وربة بيت ، ونرى كم تحسب الفتاة المصرية منها فى دور التعليم الثانوى ، ودور التعليم العالى على نظام البنين .

تحتاج الفتاة إلى نوع من الثقافة العقلية والمعلومات العامة ، وهذا ما تجد كفايتها منه فى البرامج الحالية فى جميع أدوار التعليم ، بل تجد فوق الكفاية .

وهذا النوع من الثقافة لازم للمرأة إلى حد تستطيع به فهم الدراسات الأخرى الضرورية لها ، وتستطيع به التفاهم كذلك مع شريكها المثقف ومسايرة تفكيره . ولكنه وحده لا يكتفى .

فهى تحتاج الى دراسة — إن لم تكن مستفيضة فكافية — عن طبيعة الطفل وغرائزه وطرق إحساسه وتفكيره ، لتستطيع القيام على تربيته ، ولا سيما فى السنوات الخمس الأولى التى ثبت أنها تكون أساس السلوك بقية الحياة ، ولتجنب الأخطاء التى تقع فيها الأم الجاهلة . والمتقفة ثقافة البنين العامة ، كالجاهلة فى هذه الناحية ، لأنها لم تدرسها بعناية واهتمام .

وتحتاج الى دراسة عن صحة الطفل وصحة الحامل ، لا نقول إنما يجب أن تصل الى حد التخصص ، ولكنها تفيد فى الحالات العادية التى لا يحتاج فيها الى الطبيب . كما يجب تمرينها على الاسعافات الأولية والتمريض المبدئى ، لأنها متصادف يوميا فى حياتها المنزلية ما تحتاج فيه الى هذا المران .

ولا شئ من هذا أو ذاك فى البرامج الحالية ، إلا قليل فى معاهد المعلمات على اختلاف درجاتها .

وتحتاج الى دراسة طويلة عن أدب الأطفال ، وعن مكتبة الطفل ، وقصصها الساذج ، وسير الأبطال والعظماء بطريقة مشوقة جذابة ، فغلى هذا الأدب الخاص تعتمد الأم المتهذبة أكثر الاعتماد فى تربية طفلها . ولا شئ من هذا حتى فى معاهد المعلمات .

ونحتاج إلى معرفة شيء عن "التربية الجنسية" لفهم طفلها وطفلها في مرحلة المراهقة ، فتكون صديقة للصبي ومستشارا للعبية في هذه المرحلة ذات الأثر البارز في مستقبل الأبناء . ولا يزال النظر إلى هذه الدراسة كمنظر الأيمن العوام !

ونحتاج إلى التدبير المنزلي ، إلى وضع ميزانية المنزل ، وتفصيل الملابس وطهي الطعام والإشراف على النادم ، ومعالجة المشاكل اليومية في البيت . وخافق جو من التسلية وباهج الحياة به .

كما نحتاج إلى توجيه ذهنها إلى خصائص الحياة الزوجية ، وتعليمها سياسة الزوج ، وترويض الرجل ! وهذا يضطرها إلى معرفة شيء كثير عن نفسية الرجال ، وطرق تفكيرهم . وهذه أمور لا تلقى شيئا من العناية في المدارس العامة . فليس من الغلو إذن ، ولا من العبث بالصور والتشبيهات ، أن نقول إن الفتاة التي لا تلم بهذه الدراسات لا تصلح للزواج الحديث ، ولا لتنشئة الجيل القادم ؛ وإن الفتاة التي تختار دراسة البنين يجب أن تكون قد نذرت نفسها للعلم والعمل ؛ وأصمت أذهنا عن صماع كل نداء للجنس ، وكل حق للأثوثة ، في المش الدافق الجميل !

ويعتذر بعض المفكرين بأن الفتاة قد لا تجد زوجا ، فيجب أن نسلحها بالعلم لتأمين زلات الحياة . أو أنها قد تجد الزوج فيجب أن نهذبها بالعلم لتستطيع مشاركته في الحياة . ومن الحق أن تزود من الثقافة بما يضمن لها المشاركة مع رجلها ؛ ولكن أمن المحتم إذا اضطرت الفتاة إلى العمل أن تسلك طريق الفتى ؟ ولم لا نعلمها لتكون مدرسة أو طبيبة أو مربية أو ممرضة إذا لم تجد المنزل والأمره ، وهي أعمال ضرورية للشعب ، وليس فيها مزاحمة للشبان .

ولماذا نختار هذا الوضع المقلوب لمعالجة أزمة الزواج ، فتعمل الشابة لينبطل الشاب ؟ ! إن إيجاد عمل لشاب ، معناه زواجه ، وإحالة فتاة وأسرة . أما إيجاد عمل لفتاة — مما يصلح للشبان — فمعناه بطالة شاب وتعويق بناء منزل وواد أسرة .

ويجب أن يكون مفهوما أن أكبر عوائق الزواج في الطبقة المتوسطة — وعليها المعول في بناء الشعب — هو العامل الاقتصادي أولا . فاضمنوا للشبان أعمالا ، وزوجات مثقفات ثقافة نسوية أضمن لكم انفراج أزمة الزواج إلى حد كبير .

أما من تشاء بعد ذلك دراسة كدراسة الرجل ، فلا نحب أن نخرمها رغبته ، التي قد يكون مبعثها شذوذا طبيعيا فيها وميلا إلى الرجولة ، فلتسرف في هذا الطريق ، متنازلة عن مطالبة كائنات ، ورغائبها كامرأة ، لتفسح طريق الزوجية لغيرها من أعددن أنفسهن لهذا المستقبل الطبيعي في حياة الأنثيات ! فلا تراحم في وقت واحد فتى وفاته !



جاء في تقرير الأطباء الذين قاموا أخيراً بالفحص عن صحة الطلبة والطالبات في الجامعة المصرية : أن صحة الفتيات ضعيفة ، لأن الغذاء الذى يتناولنه لا يقوم بالجهد العقلى الذى يبذلنه .

وليس هذا الضعف عائداً الى سوء التغذية ، ولكنه نائد الى سوء استهلاك الغذاء فى الجسم . الى تكليف هذه البنية الرقيقة فوق طاقتها من المجهود الذهنى ، واستغراق هذا المجهود لأكثر نصيب من الغذاء . وهذا الضعف هو إنذار الطبيعة لهؤلاء الشارذات عن هداها ، للارتى لم يستجبن لصوتها !

والملاحظ فى طور المراهقة ، الذى يبدأ فيه التمييز الجنسین ، أن الغذاء الذى تتناوله الفتاة ينصرف الى تكوين لحم وشحم ، فيستدير وسطها ، ويتسع حوضها ، ويهد ثدياها ، وقلمها يطرأ تغير يذكر على تكوين مخها وأعصابها . وهو عكس ما يقع للراعى ، إذ ينصرف الغذاء الى تكوين الأعصاب ونمو المخ وكثرة تلافيفه ، وقد ينحف جسمه فى هذه الأثناء .

ولهذا دلالة على إرادة الطبيعة من كليهما فى دور النضوج والاكتمال ، والتهيئة للوظيفة المكلف كل منهما فى الحياة .

إننى لأحس بإشفاق عظيم كلما رأيت واحدة من هؤلاء الشارذات عن جلسهن ، اللواتى لم يتبنأن لمستقبلهن الزوجى إلا بأبعد المواد الثقافية عن هذا المستقبل ، وليس الذنب ذنبهن فى هذا ، إنما هى خطيئة الرجل وخطيئة المناهج الثقافية . بل هى خطيئة الدوار الذى أصابنا وأصاب العالم عقب الحرب العظمى ، بفعلنا نهتف بصيحات لا نعقلها ولا نقدر مداها عن حرية المرأة ومساواة الجنسین ، دون أن ننظم هذه الحرية ونجعل المساواة قائمة على أساس تأدية الوظيفة الحقة لكل الجنسین .

وهى ضريبة التطور التى تؤديها من سعادتنا وأخلاقنا ، ولا بد أن يؤديها هذا الجيل شبانا وشابات ، رضى أم كره .

ولكن يجب ألا ننقل على أنفسنا فى أدائها ، وأن نشوب الى حكمة الطبيعة ونصيح لندائها
سيد قطب